وفى العالَمِ الغربى ، كتَبَ « جُورج سارتُون » عن « القزوينى » فى كتابِه « المدخل إلى تاريخ العلوم عن العرب » ، وكتَبَ عنه « كراتشكوفسكى » فى كتابِه : « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ، وكتب عنه « ايتنهاوزن » فى كتابِه : « التصويرُ العربى » ، وكتب عنه :« تشارلس لايل » فى كتابِه : « مبادىءُ علم الجيُولوجيا » . وكتَبَ عنه « شاخت » فى كتابِه : « تراث الإسلام » الذى نُشِرَ مترجَماً إلى العربيّة ، فى سلسلة : « عالم المعرفة » الكويتيّة .

•

تُرجِمَ كتاب « عجائِب المخلوقات » إلى الفارسِيّة ، والتركِيّة ، ونُشِر فى طبعةٍ مزودّةٍ بالصّور والرسُوم ، وتُرجِمَ إلى الفرنسية فى باريس .

وطُبع كتابُ «عجائبِ المخلوقات » ، بنصّه العربى ، فى مدينة « لوتنْجين » ، وطبع فى مصرَ على هامِش كتَابِ : « حياةُ الحيوانِ الكبرى » للدّمَيْرِىّ ، فى أواخرِ القرنِ التاسعِ عشر . ثم

نُشِرت له طبعةٌ مستقِلّة حقّقَها وقدّم لها : « فاروق سعد » .

وهُنَاك مخطوطاتٌ مُصوَّرةٌ لكتابِ « القزوينى » فى « ميونيخ » ، و« واشنطن » ، « ودارِ الكتب الأهلية » فى باريس ، ومكتبةِ « رِضَا رامْبُور » بالهند ، ومعهدِ المخطُوطات بجامِعةِ الدولِ العربية .

•

فى القرن القادم ، ستحينُ مع العامِ الثالث فى العقدِ الأول من القرن الحادِى والعشرين ، ذكرَى ميلادِ العالِمِ العربِىّ : « زكريا القزوينىّ » ، الذى وضَع أوَّلَ نَواة فى عِلْمِ « الجيُولُوجْيا » أو علمِ طبقات الأرض ، وأوّلَ نَواةٍ فى عِلْمِ « الكُوزْمُوغْرَافيا » أو علْمِ « نشوءِ الكون » ، وهى ذكرَى ينبغِي الاحتفالُ بها ، فى مؤتمرٍ ومِهرجَانٍ ، تشترِك فيه : السعودِيةُ ، والعراقُ ، وسورِية ، ومنظّمةُ الثقافةِ العربية بالجامعةِ العربية بمناسبة مرور ثمانمائة عام ، وتُعِدُّ معاً لإلقَاءِ المحاضرات والأبحاثِ عنه ، وتقدّمُ للناسِ كافّةً أعمالَ « القزوينى »

الكاملة ، التى كتَبَها للناسِ جميعا ، قبلَ أكثر من سبعمائةِ سنة ، آمِلاً أن تكونَ المعرِفةُ كالماءِ والهواءِ والنور ، فى كلّ العُصُورِ والبُلدان . ولتكنْ المدينة المنوّرة ، هى أرضُ هذا المؤتمر ، وذلِك المِهرَجان .

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٩٠ / ٣٥٦٧

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

علماء
العرب
١٤

القـــزوينى

عالم رحالة ، عاش فى القرن الميلادى الثالث عشر ، وجاب بفرسه أنحاء فارس والعراق والشام ، وكشف أسرار الأرض ومعادنها ، وعالم الأحياء فوقها ، وبرهن قبل كوبرنيك وجاليليو بثلاثة قرون على دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس ، ودوران الشمس حول نفسها وحول مركز المجرّة . وكان أول من وضع نواة علم لنشوء الكون وقدم معارف العلم لكافة الناس موشاة بالموروثات الأدبية الشعبية . إنها قصة تثير الفخار يقرؤها الصغار والكبار .

صدر من هذه السلسلة :

١ - ابن النفيس	٨ - الفارابي
٢ - ابن الهيثم	٩ - الخوارزمى
٣ - البيرونى	١٠ - الادريسى
٤ - جابر بن حيان	١١ - الدميرى
٥ - ابن البيطار	١٢ - ابن رشد
٦ - ابن بطوطة	١٣ - ابن ماجد
٧ - ابن سينا	١٤ - القزوينى

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

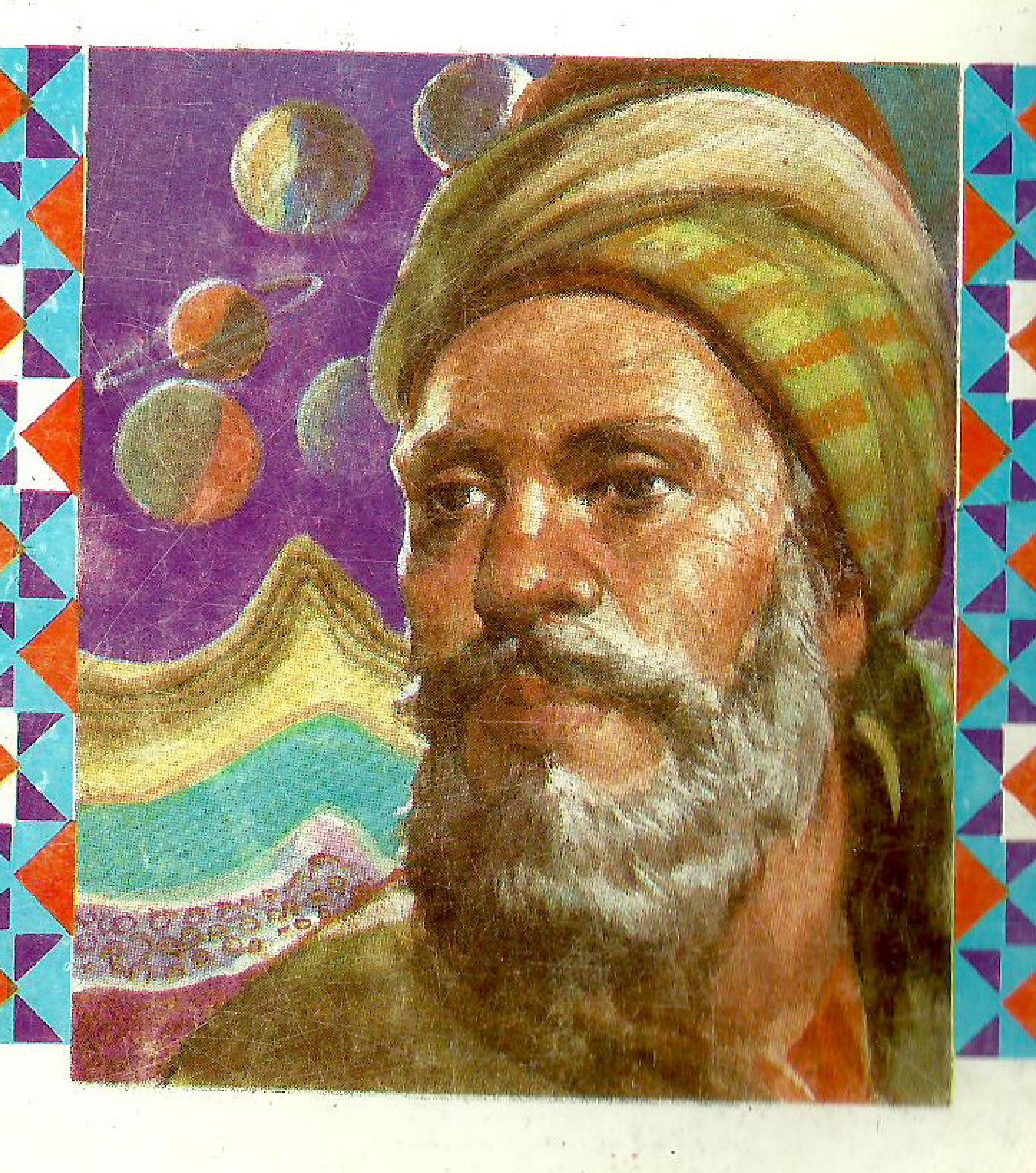
مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

علماء العرب

١٤

القزوينى

عالم الجيولوجيا



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الأهرام
مركز الأهرام للترجمة والنشر

علماء
العرب

القزوينى

عالم الجيولوجيا



سليمان فياض

الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة
تليفون : ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان



راعى غنم

مع غُروبِ الشّمس ، عاد « زكرِيّا » من سَفْحِ الجبل ، يحمِل على صدره مُصْحفا ، فى كيس مُعلّقٍ بعنقِه . كان يضعُ ساعِدَيْه على عَصاً فَوْق كتفَيْه ، مِثل رُعاةِ الأغْنام . وكانتِ الأغنامُ العشرُون تسيرُ أمامَه آمِنةً ، لا تشرُدُ منها شاةٌ ولا مَاعِز ، وكأنها تعرِفُ طرِيقَها .

دفعَ « زكرِيّا » بابَ الفِناء ، فدخلَتِ الأغنامُ مُسرِعة ، وأحاطتْ بحوض ماء ، قُرْبَ حظيرَتِها ، وأخذتْ تشرَبُ وترتَوِي . وكانتْ قد شبِعَتْ طَوال نهارِها ، من حشائِشِ الجبَل .

كان « محمد » والِدُ « زكرِيّا » ، جالِساً مع أمِّه أمامَ بيْتٍ مُتواضِعٍ ، داخِلَ الفناءِ المُسوَّر بأحجارِ الجبل ، ينتظِران عودَةَ زكرِيّا مع الأغْنَام . وأقْبلَ « زكرِيّا » نحوَهُما ، وألقَى عليْهما بالسّلام . وخلَعَ نعْلَيْه ، وجلَسَ معَهما على الحصير ، وقد تَوجتِ الشّمسُ وجهَه بسُمرَةٍ داكِنة ، ووَرَّدتْ وجْنَتيْه بحُمرةِ الصِّبا . ورفَعَ زكرِيّا كيسَ المصْحَفِ ،وقَبَّله ، ووضَعَه على صُنْدُوقٍ خشبِيٍّ بجانِبه . وهمَّت أمّ « زكرِيّا » بالوُقُوف قائِلة :

ـ سأعِدّ لك شراباً ساخِناً ، وطعاماً خفِيفاً ، قبْلَ أن تذهَبَ مع أبِيك إلى المسجِدِ .

فقالَ « زكرِيّا » :



— ليسَ الآن يا أمّى . فأنا لم أجُعْ بعد . سأسَمِّعُ الآنَ لأبِى ما حفظْتُه من القُرآن .

فابْتسَمَ « محمد » سعيداً ، وقالَ لزكرِيّا :

— ستكُونُ ، بمشيئةِ الله ، فقِيهاً نابِهاً ، مثلَ أعمامِك وأخوالِك ، هُنَا فِي « قَزوين » ، وهُناك فى الكُوفَةِ ، والبَصْرَةِ ، وبَغْدادَ ، ومدينة رسُولِ الله . اقرأْ يا زكرِيّا ما حفِظْتَه من كتابِ الله . وأَحسِنِ التَّرتيل ، فى قراءَتك لآياتِ الله .

وأَخذ الصبى « زكرِيّا » ابنُ السنواتِ العشْرَة ، يقرأُ « رُبْعا » من سُورَةِ « الأنْعَام » ، كان قَدْ حفِظه أثْناءَ النّهار ، وهو يَرْعَى أغْنَامَه بالجَبَل . وكانَتِ الأغْنَام قد دخَلت وحْدَها إلى حظِيرَتها ، ورقَدت مائِلَةً على جنُوبِها ، ثانِيةً قوائمها تَحْتَها . ولم يكنْ « محمد » بحاجَةٍ إلى المصْحَف ، وهو يُنصتُ لترتيلِ ولَدِه ، فَقَدْ كانَ يحفظُ القُرآنَ كُلَّه ، عن ظَهْرِ قَلْب .

وحِينَ انتَهى « زكرِيّا » من تسْمِيع ما حفِظَه ، دُونَ خطأ

واحدٍ ، فى كلمَةٍ ، أو تشكِيلٍ ، أو تَرْتِيل ، وضَعَ والدهُ كفَّه على رأْسِه ، وقالَ له :

— بُورِكْتَ يابُنَىّ . وبُورِكَ لكَ فى حِفْظِكَ ، إن شاءَ الله . هيّا بنا للصّلاة .

درس المغرب

كانَ « محمدُ » واعِظَ مسجِدٍ من مَساجِدِ أحْيَاءِ مدينَةِ « قَزوِين » ، بناه يوماً « هارُون الرشيد » ، وواحداً من فُقَهَائِها الأعْلام . وأدَّى « زكرِيّا » الصلاةَ وراءَ أَبيه ، مع المصلِّين مِنَ الرعَاةِ والفَلاّحِين ، وتُجّارِ الفَوَاكِه ، وناسِجى الحرير ، والسَّجَاجِيدِ الفارسِيّة الفاخِرَة . ثم جَلَس بيْنَهم وهُمْ يتحلّقون حَوْلَ أَبيه ، فى حَلَقاتٍ ودَوَائِر .

وأخَذَ « محمد » يُلْقِى على الحاضِرِينَ دَرْسَ المغْرِب . وكانَ الدرْسُ عن مَلكُوتِ السّماوَاتِ والأرضِ ، وما فِيهِ من مخلوقَاتٍ ومَوْجُودَات ، تَحارُ فى رَوْعتِها وجَمالها العُقُول والألْبَاب .

وكانَ « زكريّا » يُنصِتُ بسمْعِه إلى أبيه ، وعَيْناهُ ترقُبانِ وُجوه الجالِسين . كان يعرفُهم وجْهاً وجْهاً ، ويعرِفُ أسماءَهم وأعمالَهم فى « قَزْوين » ولَوْ أنّه سمِعَ صوْتَ أحَدِهم ، فى ظلامِ الليّل ، لعرَفَ من يكُون .

وأثارتْ موعِظةُ أبيه فى نفْسِه أشواقاً لرُؤْيةِ كافّةِ المخلُوقاتِ والموجُودات على الأرْضِ ، وفى السّماء .

وقارَبَ درْسُ المغربِ الانْتِهاء ، فأذّن مُؤذّن المسجدِ لصَلاةِ العِشاء ، فنهض الكُلّ ، وأقامُوا الصفُوفَ لأداءِ الصّلاة ، وراءَ أبيه .

وكان زكريّا وأبوه آخِرَ الخارِجين من المسْجد ، وشقّا طريقَهما ، عائِدَيْن إلى البيْتِ ، فى أرْضٍ سهْلة ، لاتُثِيرُ تُراباً ، ولا تَعْثُر فِيها الأقْدام .

الجـد الأكبر

وجلستِ الأسْرة لتناوُلِ العَشاء . وأخَذَ « محمد » يُحدِّث بناته وبنيه ، عن جَدِّهم الأكبَر ، الصّحابِيِّ الجَلِيل : « أنسُ ابنُ مالِك » .

كانَ «أنسُ» قد وُلِد قبْلَ الهِجْرَة بعشْرِ سنَوات . وقَدّمته أمُّه إلى رسُولِ الله ، لكى يتربَّى على يَدَيْه . فَشَبَّ « أنسُ » فى بيْتِ رسُولِ الله ، يتبعُه أيْنَما ذَهَب ، ويسْمعُ مِنْهُ آياتِ الوَحْى ، ويرقُبُ سُلُوكَه فى حَيَاتِه ، ومَعَ النّاسِ ، ويسمَع أقوالَه ونَصائِحَهُ ، لأهْلِ المدِينة ، وللمُسْلمِينَ الجُدُدِ القادِمِين إلى المدِينة ، من كلّ أنْحاءِ الجزيرَةِ العربيّة .

وحكَى « محمد » لبَناتِه وبنيه عن جدّهم الأكبَر ، فيما حكَاه . قال :

ـ كانَ الناسُ يُلَقِّبُونه بلقَبِ : « أبو حَمْزَة » . اشتَرك جدّكُم « أبُو حمزة » هَذَا ، وهو مايَزال بَعْدُ صبِيّا ، فى غزْوَة

« بَدْر » ، ثُمّ فى غَزْوَاتٍ أُخْرَى مع رسُولِ الله ، إلى أنْ لَحِق رسُولُ الله بالرفِيقِ الأَعْلى .

وتنهّد « محمد » ، وعادَ يقُول :

ـ انحاز جَدّكُم أنَسُ ، فى سَنَواتِ الفِتْنةِ الكُبْرى ، فى عَهْدِ الخُلَفاءِ الرّاشِدِين ، إلى الإمَام « علِىّ بن أبِى طالِب » ، ابنِ عمِّ رسُولِ الله ، ضدّ بنِى أُميّة . ثم انْحازَ إلَى آل الزُّبير ، فى صِراعِهِمْ مع بنِي أُميّة ، بعْدَ استِشْهادِ علىّ . وانهزم آلُ الزبَيْر أمامَ الأموِيِّينَ ، فاستَقرّ جَدّكُمُ الأكبرُ : « أبُوحمزةَ أنس ابنُ مالك » فى مدينَةِ البَصْرة .

وسكت « محمد » برهة ، والأنظارُ مُعلّقة بِهِ ، فقالَ لهُ « زكريّا » :

ـ ثم .. ماذا حَدَث لجَدِّنا ، هذِهِ أوّل مرّةٍ تحدِّثُنا فيها عنه .

فقال « محمد » :

ـ كان جدُّكم « أبُو حمزةَ » قد بلَغَ من العُمرِ اثنتيْن وثمانين



سَنَةً ،حين نَشِبَتْ ثورةُ الإمَامِ : « ابنُ الشّعبى » ، ضدّ : « الحَجّاج بن يُوسُفَ الثّقفِىّ » أميرُ العراقِ الطاغِيَة ، من قبلِ الخليفَةِ الأمَوىّ : « عبدُ الملِكِ بنُ مَرْوان » . وانحازَ جدّكم « أبُوحمزةَ » إلى الإمَام « ابنُ الشعبى » وهو فِى هذا العمر ، فأخِذَ أسيراً بيْنَ الأسْرَى إلى دِمشْق . فأَطْلَقَ الخليفةُ « عبدُ الملِك » سَرَاحه ، وردّه مُعزّزاً مُكرّماً إلى البصْرةِ ، فأقامَ بها إلى نِهايَة عُمرِه ، فى مدائِنَ العراقِ ، وفارِس .

كانت تلك الليلةُ عاصفةً وفاصِلةً ، فى حياةِ « زكريّا » ،

فرقَدَ فى فراشِه ، فى ليلةٍ صَيْفيَّةٍ قمريّة ، جافَّةِ الهَواء ، على سَطْحِ البَيْت ، يستعِيدُ ذِكْرَى جدِّه الأكبر ، ويرقُب نُجُومَ السّماء ، ويتراءَى لخيَالِه جبَل « البُورْز » شاهِقاً ، بيْنَ « قزْوين » وبحر « الخزَر » (بحر قزْوين الآن) ، وتُعاوِد سمْعَه أقاصِيصُ أبيه فى المسْجِد ، عن « عَجائِبِ المخلوقات » و «غرائِبِ الموجُودَات » ،فى ملكُوتِ الله .

فى المرعى الخصيب

فى الصّباحِ ، سَاق « زكريّا » أمامَه أغنامَهُ العِشْرين إلى المْرعَى ، وقد صَحِب فى يدِه صُرَّة بها زَادُ غِذَائِه ، من الخُبْزِ ، والزّيْتون ، والجُبن ، واللّحْم المقدَّدِ ، والفَوَاكه ، وتدلى كِيسُ المُصحَفِ من عُنقِه على صَدرِه . وأخَذَ « زكريّا » يَرْقى بغَنماتِه سَفْحَ الجبل ، بيْنَ الصّخُورِ والنّبَاتَاتِ الجَبَلية ، حتى بلَغَ بالأغْنام مَرْعًى مُنبَسِطاً خصيبا ، يُؤْثِرُهُ لأغْنامِه ، فتركها ترْعى فيه ، من حوْلِه ، وجلَس تحتَ شجرَةِ تُوت ، وارِفَةِ الظِّلّ ، بالقربِ من عَيْنٍ جَبَلِيّة ، يخرجُ مِنها الماءُ عَذْباً سائِغاً(حُلْو المذاق) بلاَ انْقِطاع ، ويجْرِى فى جَداوِلَ بيْن أخادِيدِ الصّخُور . كانتْ فى

الجبَل عشراتٌ مثلُها من العُيُون الفوّارة . وكانتْ ثمة طيورٌ تحلّق فى سماءٍ رمادِيّة ، بينَها طُيُورُ الصُّقُور ، والبازِى ، والنّسُور ، والعَصَافِير ، تَرُوحُ وتغْدُو فوْقَ هَامَاتِ الجبَل وقِممِه ، بيْن « قزْوين » وبحْر « الخزر » . وتَمنّى « زكرِيّا » لوْ يَرْقَى الجبَلَ ، ويَرَى ما وراءَ الجبَل ، مثلما تَمنّى ، فى اللّيل ، أن يُحلّق بيْنَ الأفلاكِ والكواكبِ والنُّجومِ ، رُوحاً ظمْأى لمعرفة المجْهُول .

الــــوعد

مرّ عامان ، وأتمّ « زكرِيّا » حفْظ القُرْآن . وعكَف « زكرِيّا » على حِفْظِ أحادِيث كتابِ « الموَطَّأ » للإمامِ « مالكُ ابنُ أنس » إمام مدينَةِ رسُولِ الله ، فأتَمّ حِفْظَه كله خِلاَل عامٍ واحِد . وقالَ محمدٌ لولَدِه « زكرِيّا » :

ـ الحمدُ لله . آنَ لَك يابُنى ، أن تكُفّ عن الذّهَابِ مع الأغْنامِ للمرْعَى ، وتترُكَها لأخِيك ، فقد حانَ وقْتُ الجِدّ والدّرْسِ فى عُمرِك . ستتعَلّم على يدَىّ ، إنْ شاءَ الله ، تفْسِير

آياتِ كِتابِ الله ، وشَرْح أحادِيثِ رسُولِ الله ، وفِقْه شرِيعَة الإِسْلام ، وقواعِد عُلومِ النحوِ والصرْف ، والعَرُوض (علم أوزان الشعر) .

فقالَ « زكرِيّا » لأَبِيه :

ـ ومَتَى ستأذَنُ لِي بصُعُودِ جَبَل « البُورْز » ورُؤْيَة « بحرِ الخَزر » من قِمَّةِ الجَبَل .

فقال لَه أَبوه :

ـ لا تَتَعَجّلْ يا بُنَىّ ، فلِكُلِّ أمْرٍ أوان . ولسَوْف تَرَى ما هُوَ أَرْوَع ، عِندَما نَنْحَدِرُ معاً يوماً ، منْ أعْلَى الجَبَل ، ونقُومُ برِحْلَةٍ طوِيلَةٍ معاً ، نُبْحِر فِيهَا من شَاطِىءِ « بَحْرِ الخزر » على ظهرِ مَرْكب ، ونَرَى ما فيهِ من جُزُرٍ ، وأَسماكٍ ، ومَصَائِدَ ، وما يُحِيط بِهِ شرْقاً وغرْباً ، وشَمَالا وجنُوبا ،من المَوانِى والبُلْدَان ، ورَوَافِدِ الأَنْهار ، وتَسْمَع ، بأُذُنَيْك ، لُغَاتِ وأغانِى أقْوامٍ شَتّى ، لم تَسْمَع مِثْلَها فى مَدِينَةِ « قَزْوين » .

بَدَا زكرِيّا مَلْهُوفا ، مُهْتَاجَ الخَيَال ، فَقَال :

ـ متَى يا أبِى ؟ متَى ؟

فقالَ له أَبوه :

ـ بعدَ سَنَوَاتٍ ثلاثٍ ، إنْ شاءَ الله ، حينَ تكُون قدْ أتمَمْتَ دُروسَكَ كُلّها فى اللّغَةِ ، والدِّين .

مدينــــة قزويــن

كانتْ مدِينةُ « قَزْوين » تقَعُ فوْقَ أرْض سَهْلِيّةٍ ، ترتَفِعُ عن سَطْحِ البَحْر ، أكْثَرَ من خمسمائةِ مِترْ ، وتَتَخلّلُها مياهُ العُيُون التى تنحدِرُ من سُفُوح « البُورْز » ، وتتجمّع فى وِهَادِها ومنخفَضَاتِها ، مع مَخْزُونٍ من مِياهِ الأمْطارِ الغزِيرة ، فى الخرِيف ، والشّتاءِ ، والرّبيع ، فتتِيحَ للناسِ زِراعةَ الأرْزِ التى تحتاجُ إلى مياهٍ وفيرَة ، وتنْمُو حَوْلها أشجارُ الأحْراش (الغَابَات) البَرِّيّة ، وتنْتَشِرَ المَراعِي ، وتسْمُن الأغْنام ، وتُعْطِى بوفرَةٍ أصوافَهَا البَيْضَاءَ ، والبُنِّيَةِ ، والسّوْداءِ ، فى كلِّ عام ، فتزدَهِرُ صِنَاعَاتُ السّجّاد ، والألْبَان ، والجبن . وبَيْن أشْجارِ

« قَزْوين » ، كانَتْ أشْجارُ « التوت » ، يجمَعُ النّاسُ أوراقَها لدُودِ الحرير ، ويُحِيلُونَ شَرَانِقَها إلى خيوطٍ حرِيريّة ، تنْسجها أنْوال الحِرَفِيِّينَ من القمّاشِين (صانِعى الأقْمِشة) ثِيَاباً فاخِرَةً من الحريرِ الفارِسِىّ ،ويَأتِى لشرائِه التّجارُ من شُطْآنِ « بحرِ الخزَر » ، ومدائِنَ فارِسَ ، والهندِ ، والعِراقِ ، وخُراسَان ، وخُوارَزْم ، والتُّرك ، والكرَج ، والأَرْمَن .

وكانتْ مَدِينَةُ « قَزْوين » وما تَزَال إلَى اليَوْم ، مدِينَةً فارِسِيّة (إيرانيّة) ، تقَعُ فى الشّمَال الغرْبِىّ من مدينَةِ « الرّىّ » (كانت تقعُ فى الجنوبِ الشرقِى لمدينةِ طهْران وصارت أطلالا الآن) ، وإلى الجنُوبِ الشرقِىّ من مدينة « رَشْت » . وكانَ أهْلُ المدِينَةِ قد دخَلُوا فى الإسْلام ، مع مَوْجَاتِ الفاتِحين ، فى القرْنِ الهجرِىّ الأوّل ، وتزايَدَ عَدَدُهم باسْتِقرارِ كثيرٍ من الأسَرِ العربيّة المهاجِرَة ، وأخذوا يعلِّمون أبناء هذه الأسر شُئُونَ الدّنيا ، والحَضَارة ، ويتعلّمُون منهم شرائِعَ العقِيدَةِ ، ومبادِىءَ الأخْلاَق .

ومرّتِ السّنواتُ الثّلاث ، وقد بلَغَ « زكرِيّا » من العُمرِ



ستَّ عشْرَةَ سَنَة ، وأتمّ دِراسَتَهُ اللّغويّةَ والدينيّة كلها ، فقَالَ لهُ أَبُوه ذاتَ صَبَاح :

ـ الآن يابُنَى .وجَبَ الوَفَاءُ بوَعْدِى لك . سنرحَلُ معاً ، معَ بدَايةِ الربيع ، صاعِدين فى الجَبَل ، ومنحدرين إلى ساحِلِ البُحَيْرة ، ونُتِمّ رِحْلَتَنا إنَ شَاءَ الله .

وأخذَ « زكريّا » ينتظِرُ بفارِغِ الصّبْر ذَوَبانَ ثُلُوج الشّتاء ، من هَامَات وقِمَمِ جبال « البُورْز » ، وانْحِدارهَا مِياهاً غزيرَةً ، تجتمِعُ أسفَلَ الجَبَل ، فى الوِهَاد والمُنْخَفَضَات .

بحر الخــزر

ذابَتِ الثّلوجُ معَ الربيع ، وصعَّد « زكرِيّا » مع أَبيه ، فى الجَبَل ، حتى بلَغَا قِمّةً ترتفعُ عن سَطْحِ البحْر خمسَةَ آلاَفٍ وستمِائةِ مترٍ ، وانحَدَرَ من الجبَلِ إلى سُفُوحِه الشماليّة ، إلى شاطِىءِ « بحرِ الخزر » . قال له أَبُوه وهو يُشيرُ إلى البَحْر الفِسيح :

ـ هذا هُوَ يا بُنى ، البحْرُ العظيمُ الّذى تمنّيْت أن تَراه .

ليسَ بحراً حقيقيا يابُنى ، بالمعْنَى الّذِى يُعرِّفُ الجُغْرَافِيّون بِهِ البحار . فهُو بُحَيْرَةٌ هَائِلة ، يُقال إنّها أكبرُ بُحيْرَة فى الدّنيا ، أكبَرُ بُحيْرةٍ فى اليابِسِ من الأرْض ، ويبلُغُ عمق بعض أجزاء فيها ثمانِيةً وعشرِينَ متراً ، تحتَ سطْحِ البحر ، ويعيشُ حَوْلَها عديد من الشّعُوب والأجْناس .

ولمْ يقُلْ لهُ أبوه أنّ هذِه البُحيْرَة شَدِيدة المُلُوحة ، تبلُغُ مِساحَتُها ٤٢٤,٢٤٢ كيلو متراً مربعاً .

وصَعَد « زكرِيّا » مع أَبيه ، على ظهْرِ مركب تجارِىّ كبير يحملُ البضَائع والناسَ فى البُحيْرةِ الهائِلَة ، بيْنَ الموانِى العدِيدَة على سَوَاحله ، وبينها كان ميناءَا : باكُو ، واستْرَاخان . وشاهَدَ بعيْنيه مَصَايِد للأسْمَاك فى جُزُرِ البُحيْرة ، وشُطآنِها ، وبَيْنَها أسْماكٌ هى المصْدرُ الأوّلُ للبطارِخ (الكافْيار) . ورأى رَواسِبَ ملْحِيّة متراميةً تجفُّ عنها المياهُ على السّواحِلِ ، وفى الجُزرُ ، ورأى أنْهاراً أربعَةً تصبُّ مِياهَهَا فى البُحيْرةِ ، هى : أنهارُ الفُولْجا ، والأورال ، وكُورَا ، وتُرك . وظَلّ يُعانِى طَوَال رِحْلَته ، فى

البُحيْرةِ الهائلة ، من شِدّة نِسْبَةِ البَخْر ، وشدّةِ الحرّ ، وكثْرةِ العَرَق ، طُولَ النهار ، لكنّ الهَواء كانَ يصيرُ نديًّا ، ورَطْبا ، ومنعِشاً فى ساعَاتِ اللّيل .

وعادَ « زكريّا » مع أبيه مَبْهُورَ الأنْفاس ، عبر مدينة « رَشْت » مع قُدوم الخَريف ، وعَلَى يمينه ، كانَتْ تبدُو للعَيْن جبالُ القُوقَاز ، وعلى يَسارِه كانَتْ تبدُو قِمَمُ « البُورْز » ، وقد تَكَلّلَتْ هاماتُها العُلْيَا بالثُّلوج .

القـــرار

كانَ « محمد » قد اتّخذ ، أثْناء رِحْلَتِه ، قَراراً لارجْعَةَ فِيه ، هو الفرار بأهلِه ودِينه من قَزْوين ، إلى بَغْدَاد . فالمغُول قَدْ غزَوْا دِيَارَ أفغانِستَان وخُراسَان ، والتُّرْكْ ، وخُوارزْم ، وجنوبىَّ فَارِس ، ويُوشِكُون عَلَى الإحَاطَة بجنوبِىّ « بحْرِ الخَزَر » ، ليُصْبِح بُحيْرَةً مَغُولية ، مُحاطَةً بِجُيُوشِهِم من كُلِّ الأنْحاء ، والمغُول قد اتّخَذُوا من « قره قُوم » عاصِمةً لهُم فى قَلْبِ آسْيا كلّها .

وأعْلَن « محمد » قرارَه لأسْرتِه ، فقالَ له « زكرِيا » وقد عزّتْ عليْهِ مُفارَقَةُ مدينة « قَزْوِين » ، وسفوحِ جَبَل « البُورْز » :

ـ حين بدأْنا الرّحلةَ يا أبِى ، تُوفِّىَ زعيمِ المغُولُ «جنكيز خان » ، ولاخَطَرَ الآنَ من المغُول ، بعدَ وفاتِه .

فقال له « محمد » بأسى :

ـ يابُنى . لا تُطَمْئِنْ نفْسَك بأمَلٍ خادِعٍ ، وسَرَابٍ برّاق كذوب ، مِثل كثيرٍ من النّاس . المغُولُ رُعَاةٌ رُحّل ، وهُمْ بدْوٌ ، مايَزَالُون فى عُنْفُوانِهم ، ولسَوْف يجتَاحُون كلّ شَىء ، مثل الجَراد ، والنّمْل الأبيض . ولسوفَ تنهارُ تحتَ سنابِكِ خُيُولِهم وبغالِهم ، إماراتٌ ومَمَالِكُ إسْلامِيّةٌ عديدةٌ ممزّقَةٌ ، فى ارمينيا ، واذْربيجان ، وجُرْجان ، والأَنَاضُول ، وربّما فى ماوَرَاءَها غرباً من البِلاَد ، فى دِيَارِ الصّقالبة ، واليُونان ، والبَلْغار .

وجه بغداد الحزين

ونزحتِ أسرةُ « زكريّا » إلى بغدَاد ، واستقرّ بها المقام ، فى حيّ الرُّصَافة . وكانتْ بغدادُ قد صارَت خليطاً من السُّكان ، بينهُم العَربُ ، والفُرْسُ ، والتُّرْكُ ، والهُنُودُ ، والأرْمَنُ ، والشَّركَسُ ، والأكْرادُ ، ويتحدّثون جمِيعاً بشتّى اللّغات ، واللّهجات . ويَتصارعُون مع بَعْضِهِم البْعْض ، تحتَ رايَاتِ الفِرقِ والمذَاهِبِ الشيعيّةِ والسُّنّية ، وغيرِها من الفِرق والمذَاهِب . والهاربُون من سنَابك الخيلِ المغُوليّة ، يفِدُون على بغْدَاد ، فُرادَى وجمَاعَات ، مع شُرُوق الشّمس وغرُوبِها ، قادِمين من الجنوب والشرقِ ، والشّمال . يحتمُون بعاصمةِ الخلافةِ العباسيّة ، المهيضَةِ الجَناح ، ومُستْظلّين بحُمّى الخليفةِ العباسيّ الناصِر ، الذى صارَ مثل خُلفاءِ سابقِينَ له ، وقادِمين بعده ، أُلْعُوبة فى أيدِى القُوّاد والأعْوان من الأمراءِ السلاجقة ، والخُوارزمية .

لكنّ حلَقاتِ العِلْم والدرس ، ومكْتبَاتِ الورّاقين ، كانتْ ماتزالُ قائمةً ، ونشِطةً فى بغْدادَ ، التى خلت من العُلَماءِ



والشعراءِ المبْدِعين العِظَام . وكانَ « بيْت الحكمَةِ » مايزَالُ مفتوحاً لرُوّادِه من العُلماءِ والطُّلاّب . وفِيها وجَدَ « زكريّا » راحَته وعَزاءَه وسلْواه ، منذ رحيلِه عن « قَزْوين » . وزادَ من شعورِه بالأمْن ، اشتغالُ والِده واعظاً بمسجِدٍ فى الرّصَافة ، مثلما كانَ واعظاً فى مسجِدِ« هارُونَ الرشِيد » بقزْوين . وخَلاَ قلْبُ

زكريّا وعقله لطَلَبِ العِلم ، على أيدى البقيّةِ الباقيةِ من علماءِ بغْداد ، وفي كُتُب « بيْتِ الحِكْمة » ، ومَكْتَباتِ الورّاقين .

كـــون الله

اشتُهر « زكريّا » فى بغْدَادَ ، بلقَبِ « القَزْوينى » . وكان قد دَرَس كلّ فِقْهِ الأئمّةِ الأرْبعة ، وعلِمَ أصُولِ الدّين ، وصار مُؤهَّلاً ، وهُو فى سِنِّ العِشْرين ليكُونَ قاضياً ، لكنّ « زكريّا » كانتْ قد سَحَرَتْه مَعارِفُ أخْرَى ، من مَعَارِف : الجُغْرَافْيا ، والفَلَك ، والنُّجُومِ ، وطبقاتِ الأرض ، والمعـادِن ، والحيوانات ، والنباتات ، والطّيُور ، فى الكُتُبِ الموسُوعِيَّة العربية . وصارَ الكوْنُ بأسْره ، كما خَلقَه الله ، لا كما عَبَث به النّاس ، شُغْلَه الشّاغِل ، فى اللّيْلِ وفى النّهار ، يودُّ أنْ يتقَصّى أسْرار الأرْض ، فى أعماقها ، وسُطُوحها ، ويعرِفها بلداً بلداً ، وجبلاً جَبلا ، وبحاراً ، وأنهاراً ، ومُحيطاتٍ ، ويعرفَ من أين تبْدأ ، وأيْنَ تنْتهى ، ويَرَى كلّ ما فِيها من أجْناسِ الشّعُوب والأقْوام ، وأنْواعِ الحيوانَاتِ والطّيُور ، والأسماكِ والحشَرات ،

والهَوَامّ (حشراتُ الهواء) . بل يوَدُّ لو يَجُوبُ أجوازَ (أجْواء) الفَضَاء ، ويَرَى النّجُومَ والكواكب ، والشُّهُبَ والنّيازِك ، والأفْلاكَ والمجرّات .

وحدّثَ « زكرِيّا » أباهُ يوْماً بما فى قلْبه ، من حنينٍ لمعرفَةِ الأرضِ كلّها ، بل الكونِ بأسرِه ، فابتسَمَ أبُوه ، وقالَ لهُ بإشْفَاق :

ـ ما تبحثُ عنه يازكرِيّا ، يَعْجز العلماءُ عن الوصُولِ إليه فى كل الأُمَم . أنتَ يازكرِيّا تبْحثُ عن عِلْمٍ لم يصِلْ إليْه أحَدٌ بعْد ، وقد يكُونُ اسمُه مَثلاً ، هو : علمُ نُشوءِ الكَوْن . فأنتَ تريدُ ، وفِى وقْتٍ واحِدٍ ، معرفةَ عُلُومِ الأرْض ، وعِلْمِ الفَلَك ، وعُلومِ الجُغْرَافيا . أليْس كذلِك يا بُنّى ؟

فقالَ زكرِيّا :

ـ أوْجَزْتَ القَوْلَ يا أبى . وأحسنْتَ التّحديد . فهذا هُوما أُريد معرفَته .

فقال لَهُ أبُوه :

ـ أمامَكَ إذنْ أمْرانِ يا بُنَىّ ، ولاغِنَى لأحَدِهما عن الآخَر ، هُمَا : الرِحْلةُ فى البِلادِ المأهُولة (المسكونة) ، والأصقاع (المواضع) المجهولة ، والبَحْثُ عن المعارِف التى تريدُها ، تُجمّعها من شَتّى العُلوم ، فى بُطُونِ الكتب ، مُنْذُ عْهدِ اليُونانِ إلى يَوْمِنا .

وضحِك أبُوه ، وقَالَ :

ـ هذا إذا استَطَعْت الصبْر عَن الزّوَاجِ يا بُنى . فالزّواج : بَيْتٌ ، واستِقْرار ، وأولادٌ بحاجَةٍ إلى تربيَةٍ ورِعَايَةٍ .

لكنّ « زكريّا » ، كان قد عزَم عَلى سُلُوك الطريق ، لمعرفَةِ الأرْضِ ، وما عليها ، ومافِيها ، ومايُحِيطُ بِها ، فى كوْنِ الله الرّحيب .

احْـذَر السياسـة

وعكَفَ « زكريّا » فى مكتَبَةِ « بيْتِ الحِكمَة » ، يبحثُ عن معارِفِ السّابقِين المنشُودَةِ ، فى علُومِ الأرْضِ ، والجغرافْيا ،

والفلكِ ، ولايجدُها مجتمعَةً فى كِتابٍ بعيْنِه ، ولا عَند عُلماءِ اليُونانيّة ، وبينَها كانت كُتُب « أرْسطو » ، « وبطلميوس » ، « وارستارْكوس » ، والكُتُب التى ألّفها علماءٌ وفَلاسِفةٌ مسلِمونَ ، من بينِهِم : البِيرُونى ، وابنُ الهَيْثَم ، وابنُ سِينَا .

ويأخُذُ « زكريا » فى جَمْع شتَاتِها ، وتدوينِه فى دفاتِره ، والتعليقِ على رواياتِها المتناقِضَة ، باحثاً فِيها ، عن وجْهِ الحَقِيقة والصَّوَاب ، وبالبراهينِ المنطقية الرياضِيّة ، التى دُرِّبَ عليْها كدارِس للقضاء ، ومُسْتَنِداً إلى الآياتِ القرآنِيّة ، التي تُعزّز وجهَةَ نظَرٍ صائبة ، فى موجُوداتِ الكَوْنِ ومخلوقَاتِه ، وجمَع ، فيما جمَعَه ، معتقدَاتُ الشّعُوب ، حولَ هذهِ الموجودات ، وتِلْكَ المخلوقَات ، من الموُرُوثاتِ الشّعْبِيّة المأْثُورَة .

ثم اتخذ « زكرِيّا » قَرارَه بالسّفر والتّرحَالِ بَيْنَ البلادِ ، طلَباً للمزيدِ من المعَارِف عن الموجُودِات والمخْلُوقات ، بالمشاهدةِ والمُعَايَنَة . وأعْلَنَ « زكريّا » قراره لأبيه وإخْوَتِه ، فقالَ له أبوه :

ـ فى كلِّ أسفَارِك يابُنّى : احذَرِ السياسَة ، فلا شأْنَ لكَ

كعالِمٍ بالسِّياسَة ، ونحْنُ فى زمَان فِتْنة ، لا يأمَنُ فيها أحَدُ عَلى عُنُقِه ، من هَفْوَةٍ يقولُها لِسَانهُ ، ويحملُها وَاشٍ ، إلى شُرْطِىّ ، أو وَزِيرٍ ، أو أميرٍ ، أو قائدٍ من قُوّادِ المغُول ، أو خُصُومِ المغُول . لكَىْ تعُودَ إلى بغدادَ سالما ، وغانِماً .

وتزوّدَ زكريّا لرحْلتِه بالمالِ ، وبفرسٍ يركبُه ، وبغلٍ يحمِلُ عليْه أوْراقه وكُتُبه ، وما خفّ من الزّاد . وبَيْنَ ما حَملَهُ كانتْ كتُبُ فى المسافَاتِ بيْنَ البُلْدان ، والمواقِعِ والمواضِع ، والنجومِ المرشدَةِ والهادِيَة ، فى ظلامِ اللّيل . وغادَرَ بغْداد ذاتَ صَباحٍ ، مُوَدِّعا من الأهْلِ ، والرِّفاقِ ، والعُلَماء .

العـودة إلى بغـداد

جابَ « زكرِيّا » فى رِحلَةٍ دامتْ نحواً من عشرِ سنَوات ، أرجَاءَ فارِسَ ، وخُراسَان وأفغانِستان ، ودِيَار التُّرْكِ ، وخُوارَزْم ، وأرْمينيا ، وأذْرِبيجَان ، والكَرَج ، وكانَ أكثَرُها خاضِعاً لسُلْطانِ المغُول ، عُنْوَةً حِيناً ، وصُلْحاً حِيناً آخرَ . ومرّ فى طرِيق عودَتِه ، بمدينَةِ « قَزْوِين » ، وصَلّى فى مسجدِ



« هارُونَ الرّشِيد » ، وزارَ مراعِىَ الأغْنام ، فى سُفُوح جَبَل « البُورْز » .

وعادَ زكرِيّا إلي بغدَادَ ، وقد جاوَزَ الثلاثِين من عُمرِه ، وقد رأى الكثيرَ من عجائِبِ الأرض ، فى البَرّ والبحْرِ والجبَلِ والسّهْل ، والصخْرِ والنهْر ، وألواناً من المعادِنِ ، وأجناساً من البشَر ، مختلِفِى الملامِحِ والوجُوه ، والقامَاتِ والعيونِ والأنوف ، وأنواعاً من النّباتَاتِ والطيورِ والحشرات ، لا تُحصى عدَدَها أجْيالٌ من العُلَماء . وكانَ « زكريّا » قد دوّن ، كعادَته ، ملاحَظَاته فى دَفاتِره الخاصّة ، وجَلبَ معَهُ معارِفَ جديدةً ، وحِكَايَاتٍ عجِيبةٍ ، من كُلِّ البِلاد التى دخلَها سائِحاً ، وغادَرَها أكثَرَ معرِفَةً .

وجَدَ « زكريّا » أباه قد ودّعَ الدّنْيا ، وأوْصَى به أصدِقاءه ليساعِدُوه فى تولّى عمَل بالدّوْلة ، يُنْفِقُ منْهُ على أهْلِه . وقدّمَ له صَديقٌ لأبِيه ، رسالةً كتَبَها لهُ أبُوه ، قبْلَ أن يفارقَ الدّنْيا ، قالَ لهُ فيها : « زكريّا . اسْعَ للقضَاء فأنْتَ أهْلٌ له . واكتُبْ يوماً ، ما عرفْتَه لكُلِّ الناس ، لا لِلصّفْوَةِ وحْدَهم . واجمعْ فيما

تكتُبُه بين ما عرفْته وعقائِدِ دِينِك ، فى الحيَاةِ وفِى الكَوْن . وارْعَ الله والحقّ فى كلِّ ما تكتُبُه يابُنى . فالكلمةُ تبْقَي من بعْدِك بخيرِها وشرّها ، أوْ .. فالْزَمِ الصّمْت » .

وسمِعَ « زكريّا » وأطَاع ، فنفّذ وصِيَّةَ أبيه . سعَى لهُ صديقُ أبيه لَدَى قاضِى الجماعَةِ (قاضِى القضاة) فى بغدَاد ، فولاّه قضاء مدينَتَىْ : واسِطَ ، والحِلَّة ، جَنُوبىّ بغْدَاد ، بالقُرْب من مدينَتَىْ : النَّجَف ، وكَرْبلاَء .

وعندئِذٍ ، تزوّج « زكريّا» ، واستقر به المُقَام ، فى بيْتٍ فسيحٍ لهُ فِناء ، راح يَسلّى نفْسَه فى أوقَاتِ فراغِه ، بغرْسِ أشجارٍ ونباتاتٍ فِيه ، ورِعَايتِها فى كل يوم ، حتّى اكتسَتِ الأرْض بالخُضْرة وبألوانِ الزّهُور ، وانبسَطَتْ ظلالُ الأشْجارِ فى أنْحاءِ الفِناء.

عجـائب وغـرائب

سألته زوجتُه يوماً ، عما يكتُبه فى الأوْراق ، ويجعله يُطِيل

الجُلوس إليْها ساعاتٍ إثْر ساعات . فقال لها « زكريّا » :

ـ أُدوِّنُ كِتاباً ، لم يكتُبْه أحدٌ قبْلى ، وقَدْ جعلتُ عُنْوانَه : « عجائبُ المخلُوقَات وغرائبُ الموجودات » ، ولا أعْرِفُ حقاً ، متى أنْتهى منه ، لكِنَّنى أعرِفُ بالتّحْديد ، ماذَا سَيكُون فيه .

كانتْ زوجَةُ زكريّا عربية ، تُحْسِنُ القِراءَةَ والكِتابَة ، واعتادَ زكريّا فى ليالىَ مُتَوالِيَةٍ ، أن يقْرأَ لَها صفْحَاتٍ ممّا كَتَبَه فى نَهارِه ، أو يُملِى علَيْها ، فى الليل ، ما تَخُطّه بيدِها ، فى ضَوْءٍ باهِرٍ ، والقَنادِيل ، والمِشْكَاوَات ، تَظَلُّ مضِيئَةً فى ظَلامِ اللّيل ، إلى ساعَةِ السَّحَر ، فى مُنْتَصَفِ اللّيل .

ومرّت على « زكريّا » مع القَضَاء فى واسِط ، ومع كِتابَه ، سَنَواتٍ جاوزَتْ خَمْسَ عشْرَةَ سَنَة . اكتَسَحَ فِيها المغُول بلادَ « الكَرَج » (جُورْجيا الآن) ، وانفرَدَ فيها السّلاجِقة بحُكْم بِلادِ الأناضول (تركيا الآن) ، وفشلَتْ فِيها حملةُ مَلِكِ فرنْسَا لُويس التاسع على مِصْرِ ، وأُخِذَ أسيراً . وسَقَطَتْ فِيها الدوْلَةُ الأيُوبيّة فى مِصْر ، فوَلِىَ الأمْرَ من بعدِهم المماليكُ البَحْريّة ، فى

مِصْرَ والشّامِ والحِجَاز . وتَوَلَّى فيها « كُوبْلاى خان » حفِيدُ « جِنْكِيز خان » زعامَةَ المغُول الايلْخَانِيّة ، وبيْن قوادِهِ فى فارِسَ ، كان القائِدُ « هُولاكُو » ، وسقطت فِيها مَدِينَةُ « أشبيلِيّة » فى الأنْدَلُس فى أيْدِى الفِرِنْجَة ، فلم يبْق فى يَدِ عَرب الأندلُسِ ، سِوَى مَدِينَة « غرْنَاطَة » ، آخرِ القِلاَع العَرَبِية ، فى أُورُبا بأسْرِها .

أصــداء كتاب

كانَ زكرِيّا قد بلَغَ من العُمرِ خَمْسِين سنةَ ، حين حَمل أوْرَاق كِتَابه : « عَجائِبُ المخْلُوقاتِ وغرائِبُ الموجُوداتِ » ، إلى الوَرّاقِين ، فى مدينَةِ بغداد ، وتخاطَفَ كِتابه النّسّاخُون ، وأقْبل عليْهِ الطُّلاّبُ والعُلَماءُ ، يقرأُونَه فى دهشَةٍ وانبهار ، وتَجاوَزَ رَواجُ الكِتاب فى ذلِك الحِين ، أعْدادَ العُلماءِ وطُلاّب العِلْم ، إلى عَامّةِ النّاسِ ، ممن يعرِفُون القِراءَةَ والكِتَابَة ، بل ومِمّنْ لايجِدُونَ وسِيلَةً للمعرفة ، سِوَى السّمْع والإنْصَات ، لقارِىء من القُرّاء ، يقْرأ عليْهم فَصْلاً من فُصُول كِتابِ

« القَزْوِينِي » ، فى صحْنِ (سَاحَةٌ مكشوفةٍ بلاسَقْف) مَسْجِد ، أو فِنَاءِ دَارٍ ، أو تَحْتَ شجرَةٍ ظَلِيلة ، فى حَقْلٍ أو حدِيقَةٍ .

وغَطَّى صَدَى كتَابُ « القَزْوِينِي » على أَخْبَارِ المغُول ، التى يحمِلُها إلى بغْدَاد ، القادِمُون إليْها ، من الهارِبين والتّجار . ولم تكُنْ بغدادُ آنذَاك ، هى العاصِمَةُ الوحِيدَة للثَّقَافة ، مثلما كانَتْ فى زَمَن مَضَى ، فقَدْ صارت هُنَاك ، فى العَالَمِ الإسْلاَمِىّ ، عواصِمُ عدِيدَةُ أخْرى للثقافة ، مُنْذُ عصرِ الدُّوَلِ المسْتَقِلّة فى القَرْنِ العاشِرِ الميلادِى ، عصرِ الأُمَرَاء .وإلى هذِهِ العَوَاصِمِ حُمِلَتْ نُسَخٌ من كتابِ « القزوينى » المثيرِ للدهشة ، عن « عجائِبِ المخلوقَاتِ وغرائِبِ الموجودَاتِ » .

كل شىء يدور

فى مدينَةِ « الرىّ » جلَسَ عالِمُ الفلَكِ والرياضِيّات « نصيرُ الدّين الطّوسى » ، يقرأُ كتابَ القزْوِينِي . ومثلَ قارِىءٍ مُدرَّب ، بدأ بفَهْرَسْتِ الكِتَاب لِيَرَى تقسِيمه له ، ويعرِفَ مَنهجَه فِيه .



كانَ كتابُ العَجائب مقسمًا إلى قسمَين : قِسْمٌ عن « العُلْويّات » فى عَالَمِ الأفلاكِ المحيطَةِ بالأرض ، بأشْكَالِها وأوْضَاعها فى المكانِ ، وفى الزّمَان . وقِسْم عن « السُّفْليّاتِ » ، أو « كُرَةِ الأَرض » وما فيها من ماءٍ ونارٍ وهَواء وطبقات ، ومَعَادِنَ ونَباتٍ وحَيوانٍ .

وأدرَكَ « نصيرُ الدين » لفوْرِه ، وهو يتصَفّح الكِتاب ، أن معارِفَ العِلْمِ التى كانَتْ حكرًا للخاصّة والصّفْوة ، مُنْذُ عصرِ الفَلاَسِفَةِ والعُلَماء اليُونَان ، قد أصْبَحتْ ، فى هَذا الكتاب ، مُباحَةً ومُتاحَةً ليعرِفَها النّاسُ كافّةً ، ويكتشِفُوا ، عن نَشْأَةِ الكَوْنِ ، وحركَةِ أجرامِه ، وتكَوُّن نجومِه وكواكِبه ، وعنْ الأَرْضِ وطبقاتِها ، وما فِى جوْفِها ، ومايدُبّ فوقَها ، ويحيطُ بها ، مالم يكونُوا يعرِفُونَه من الحقائِقِ العلمية ، ومَقْرُونةً بالحكايَةِ الشعبيةِ عنها ، فى الوقتِ نفْسِه .

وأخذَ « نصِيرُ الدّين » يقرأُ كتاب « القزوينى » العجيب ، حتّى وصَلَ إلى نهايتِه ، فى نهارٍ واحِد . وحينَ طَوَاه أدرك أنّ النّاسَ جميعا ، وفى كلّ العصورِ والبلدَان ، سيعرِفُون أنّ الأرضَ

كرة ، كما عَرَفها « استاركوس » ، « والبِيرونىّ » « وابنُ الهيثم » « وابنُ سِينا » وليسَتْ قُرْصا مستدِيراً ، ولا شكْلاً مُربّعا ، أو اسطُوانيا . وسيعرِفُون أن الأرْضَ تدُورُ حَوْلَ مِحْوَرِها ، من الغَربِ إلى الشرْق ، والمخلُوقاتُ والموجودَاتُ علَيْها ، منجذِبُون إلَيْها ، بقُوّةِ الجَذْب ، وقُوّةِ الدوَرَان ، معاً ، وليسَتْ ثابِتَةً ، فى مرْكزِ الكوْن ، كما كانَ يقُول « بطلميوس » . وسيعرِفُون أن ما نشاهِدُه من حرَكَاتِ النّجُومِ والكواكِبِ ، فى السّماء ، لايرجِعُ إلى دَوَرانِ الأرْض حَوْل مِحْوَرِها ، فتتَغيّرُ للناظِر المشاهدُ والمرئيّاتُ فى عالَمِ السماء . وسيعرِفُون أنّ معظَمَ اليابِس من الأَرْضِ فى نِصْفِها الشمالى ، وأن صُورَةَ السّماءِ بنجُومِها وكَواكِبها ، تَخْتَلِفُ فى النّصْفِ الشّمَالى من الأرْضِ عَنْها فى النّصْف الجنوبىّ من الأرض . وسيعرِفُون أن القَمَرَ يدُورُ حَوْل الأَرْض ، وأنّ الأَرْضَ ، وكواكِبَ أُخرى معَها ، تدُور حَوْلَ الشّمْس ، فتكُونُ الفصُولُ الأرْبَعة ، وأنّ الشّمْس تدوُر حَوْل نفْسِها أيْضا ، وحَوْل مركزِ المجَرّة ، مثلَما تدوُرُ الأرضُ حَوْل نفسِها ، وحَوْلَ الشّمس . وسيعرِفُون بَراهِينَ « القزوينى » وبالمنطِقِ الرياضِىّ ، على ذلك كُلِّه .

ورأى « نصيرُ الدين »نُزول « القزوينى » بالناس فى كِتَابِه ، من عالَمِ الفلَك الرّحِيب ، إلى عَالَم الأرْضِ ، لِيُقدِّمَ لهُم ، مع الحِكَايَاتِ الشّعْبيّة والآياتِ القُرْآنية ، مافِى أعْمَاقِ الأرْض من طَبَقَاتٍ ، ودَرَجَاتٍ حرارَةٍ ، وأبخرةٍ وغَازات ، ومَعَادِنَ وفِلزّات ، وما عَلَى سطْحِها من يابسٍ ومَاء ، بينَ جبَالٍ وسُهُول ، وبَرارِى وصَحَارَى ، وبِحَارٍ وبُحيْرات ، وأنهارٍ ونُهَيْرات ، وما يحدُثُ فَوْقَها من زَلازِلَ وبَراكِينَ ، وحرارةٍ ورِيَاح ، وكيْفِيّةِ حُدُوثِها كُلِّها ، وكيْفَ ومَتَى يصِيرُ اليابسُ بحْراً ، والبحرُ يابساً ، يعلُو هَذا وينْخفِضُ ذاك ، عبْرَ دَوْرَاتِ التّاريخ ، كُلَّ بِضْعَةِ آلافٍ من السنين ، وعَمّا يُحيطُ بالأرْض مِنْ طبقَاتِ الهَوَاء ، ومايَخرُجُ فِيها من نَبَاتَاتٍ ، وما يَسْعَى فَوْقَها من أجْناسِ البَشَر ، وأنْوَاعِ الحَيَوَانَاتِ ، والحَشَرات ، ومايُرفرِفُ فى فَضَائِها من الطّيُورِ والهَوَامّ ، وما يسبَح فى مِيَاهِها من أسْماكِ البَحْر ، وحَيَوَانَاتِه البَحريّة .

وأخذتْ « نصيرُ الديْن » الدّهشة من معارِفِ « القزوينى » فى كِتَابِه ، عمّا فى جَوْفِ الأرض ، عنْ نَوَاةِ

القَلْب فى الارْض ، وقِشْرَتِها ، ومِيَاهِها الجوْفِيّة ، ومعادِنِها وفِلِزّاتِها الخبيثة ، من الذهَبِ والفِضّة ، والحدِيدِ والرّصَاص ، والماسِ والنّحاس ، والزئْبَق والكبْريت ، والنِّفْط والقَار ، وكيفيّة تكوّنها عبْرَ العُصُورِ والأزْمَان ، وعنْ طبَقَاتِ الأرْضِ الحجرِيّة والجِيريّةِ والرّمْليّة ، وكيفيةِ تكوّنِها ، وحُدُوثِها .

وجلَسَ « نصيرُ الدين » يكتُبُ رسالَةَ تَحِيّة للقَزْوينى ، يبعَثُ بها إليْه من « الرىّ » إلَى بغدادِ . لكنّ الرِسالَةَ لم تصِلْ إليْه قطّ ، ورُبّما لم تُتحِ الفُرْصَةُ لنصيرِ الدين لإرسَالِها إليْه ، لانشِغَالِه بوَلائِه الجَدِيد ، لقُوّةِ « المغُولِ » الصّاعِدَة .

فرحة لم تتم

كان كتابُ « القزوينى » فى زمَانِه حدَثا ، وحَدَثاً سابِقاً لأوانه ، وسابِقاً بما فِيه من معارِفَ أكثَرُها لعُلَماءِ سابِقِين ، من اليونانِيِّين والعَرَب معا ، للمعارِف التى ردّدَها علماءُ الأرض والفَلَك والجُغْرافيا ، فى مطلَع عصْرِ النهضة فى أُورُبا ، فى القرْنِ

السَّادِسِ عشَرَ والسابع عشَر ، وبَدْءا من « كوبْرنيك » و« جاليليُو » .

ولم تَتِمَّ فرحَةُ « القَزْوِينى » ولا أَهْلِ العراقِ ، بهَذا الكِتَاب ، سِوَى سنَوَاتٍ ثمانٍ ، فقد اندفعَ المغُولُ الايلْخانيّة ، بقيادَةِ « هولاكو » نحوَ بغْدَاد ، واجتاحُوهَا من الغَرْب والشّرق ، كالإعْصارِ العاصِف ، وقتَلُوا الخَليفَةَ الضعيف « المستعصِمُ بالله » ، غدْراً ، بعدَ رِضَاه بمقابلتِه لهُولاكو مُصَالِحا ، وتقديمِه للهَدَايا والكُنُوز ، وقتَلُوا مَعَه بنِيه وآلَ بَيْتِه ، وأَسَرُوا زوجَته وبنَاته وجَوارِيه .

وانتقلَتِ الأخبارُ بسُرعةٍ للقَزْوِينى ، حيثُ يُقِيمُ بِواسط ، فأفزعه أن يُجاوِز عَدَدُ القَتْلى مِائةَ أَلْف ، وأَنْ تُدمّر حضارَةُ عصْرٍ ، وأن تُحرَق مكْتَبات بَغْدَاد ، وأن تُجْعَلَ الكُتُبُ جسْراً ، تَعْبُر عليهِ خَيْلُ المغُول ، فى نَهْرِ دِجْلة ، من الغَرْبِ إلى الشّرْق .
وزَادَ فى حُزْنه ماعرفَهُ من تَعاوُنِ عُلَماء عِظَامٍ من الفُرْس ، مِثْل « نصيرِ الدينِ الطّوسِىّ » ، مَعَ هُولاكُو والمغُول .

ولم يبْقَ أمَامَ « القزوِينى » سِوَى الفِرَارِ بأهله ، من العِرَاق

إلَى الشامِ ، حتّى لا يأخُذَه المغولُ ، بتهمَةِ أنّه من رِجَال الدّوْلَة ، ففرّ بأهلِه من العِراق ، فى السّنَةِ نفسِها ، سَنَةَ سبعمائةٍ وثمانٍ وخمسِينَ هجريّة ، ألفٍ ومائتينْ وثمانٍ وخمسِينَ ميلادِيّة .

هزيمة المغول

استقرّ المُقَامُ بالقزوِينى وزوجتِه وبناته وبنيه فى دمشق . وقال لزوجته :

ـ معنا مالٌ ادّخرْته لمثلِ هذه الأيّام العصِيبة . وعلينا الآن أن نخفِىَ أنفسنا إلى حِين ، فلا يعرِفُ أحدٌ من أنا ، ولا من أكُون . فالمغُول لنْ يتوقّفوا عندَ بغْداد ، ولَسوْف يدفعُون بموْجاتٍ أُخرَى صَوْب الشّام ، ويُهدّدون منها مصرَ ، وأهلَ مصرَ .

وقضَى « القزوِينى » أيامَه فى دِمشق ، يُتابع الأحْدَاث التى تجرِى فى مصرَ ، ويعقدِ على أمراءِ مماليكِها البحريّة الآمَال . ويتجوّل ساعاتٍ على شاطِىءِ نهرِ « بَرَدَى » ، وفى غَوْطَةِ (بستان) دِمشق .

وفى مصرَ كان المماليكُ بقيادةِ « قُطز » و« بيبرس » يستعِدُّون لِلقاءِ مَحْتومٍ ، ذات يوم ، مع جيُوشِ المغُول ، يساندِهما الشيخُ « عِزُّ الدين بنُ عبدِالسّلام » ، الذى راح يحثّ الناسَ على الجِهاد ، والتبرُّعِ بالأمْوال .

وتقدّمتْ جيُوشِ المغُولِ ، واحتلّت ديارَ الشام ، وبعثُوا يهدُدون مصرَ بالحرْب ، إذا لمْ تُسلِّم وتفتح بلادَها لهُم كغُزاة ، ورفضَ السلطان « قطز » تهديدات المغُول ، واستنفرَ الناسَ للحرب ، وخرَج فى ستَّ عشرة كتِيبةً ، للقَاءِ المغُول ، وبينَها كانتْ أربعةُ كتائِبَ لِفرسانِ المماليك ، واثنتا عشرةَ كتِيبةً من الفلاحِين المصريّين . وحدَث اللقاءُ الرهِيب فى « عينْ جالوت » ، وهُزِم المغُول شرّ هزيمة ، وصارَ قتْلاَهم تلالاً فى ساحَةِ القِتال . وتراجَعَ « المغُول » من ديارِ الشام إلى العِراق . ودوّى صدَى هزيمتِهم بيْن المسلمِين ، ونجَت مصر ، وشمالِ افريقية ، وجزيرَةُ العرب ، من الغزْوِ المغولِيّ .

عندئذٍ أمِن « القزوينى » وأهلُ بيتِه ، وراقَتْ له الحياةُ فى دِمشق ، يشهَد عن قُرب صِراعَ المماليك لإجلاَءِ الصليبيّين عن

الشّام ، وقضائهم على جماعةِ « الحشّاشِين » الإرْهابِيّة ، فى ديارِ الشام .

وفرغ « القزوينى » لكى يكتُبَ كُتُبهُ الجدِيدة ، عن : « عجائِبِ البلدان » ، و« صورةِ الأرض » ، وكان آخرُها كتابُه الهام : « آثارُ البلادِ وأخبارُ العِباد » . كان الكتابُ عن التاريخ البشرىّ ، وأيضا ، عن الأرضِ التى يَحيَا عليها البشَر ، وأقاليمها السبعة ، وكان القزوينى قد بلغ من العمر آنذاك ، خمساً وسبْعِين سنة .

●

فى سنةِ ستمائةٍ هجريّة ، ألفٍ ومائتين وثلاثٍ ميلادِيّة ، وُلِد العالِمُ العرَبى الجيولُوجى : « زكريا بنُ محمدٍ بنُ محمودٍ النّجادِىّ الكُوفِىّ » الشهيرُ بالقَزْوِينىّ .

وفى سنةِ سُتمائةٍ واثنتيْن وثمانينَ هجرية ، ألفٍ ومائتينِ وثلاثٍ وثمانينَ مِيلادِيّة ، كانت وفاةُ عالِمٍ عربِي ، رفعَ بصرَه إلى حركةِ الأفلاكِ والنّجُومِ والكواكب فى الفضاءِ الرحِيب ،

وحدَّق فى أعمَاقِ الأرضِ وبرِّها وبحْرِها ، وبسَّطَ كلّ ماعرفه ورآه لكافّةِ الناس ، فى كتاب .

●

وفى العالَمِ الإسلامى ، فى العصُور الوُسْطى ، لخّص « البَاتُونِى » كتابَ : « عجائبُ المخلوقات » فى القرْن الميلادِى الخامِس عشر ، تحتَ عنوان : « الآثارُ من عجائِبِ المخلُوقَات » .

وفى العصرِ الحديث كتَبَ عن « القزوينى » ، عديدٌ من العلماءِ والمؤرِخينَ العرب ، كلما تعرّضوا للتأرِيخِ للعلومِ العربيّة الفلكيّةِ ، والجغرافِيّةِ ، والطّبيعيّةِ ، أو لعلومِ الأحْياء . ومن أشْهَرِ هؤلاء العلماء والمؤرخين العرب : « أحمد عيسى » ، و« عبدالحليمِ منتصر » ، و« توفيقُ الطويل » ، و « مقبُول أحمد » ، و« محمد يوسف حسن » الذى تحدّث عن « القزوينى » فى مِهْرَجَانٍ إسلامِىّ عُقِد فى لنْدن ، عن « أثر الفكر الإسلامى فى تقدم علم الجيولوجيا » ، عامَ ١٩٧٦ .

